مُتَشَابِهُ النَّظْمِ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تأليف

الأستاذ الدكتور

جمال مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، ونستعينه ونستهديه، ونستغفره ونتوب إليه، ونستعيذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً رسول الله ، صلي الله وسلم وبارك عليه، وعلي آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلي يوم الدين، صلاة وسلاماً وبركة عدد خلق الله ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته وعدد معلوماته، كلما ذكر الله الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

أما بعد: **فهذا بحث بعنوان: "متشابِه النظم في القرآن الكريم"**

تدور فصوله حول تلك الآيات أو الجمل أو الكلمات التي تكررت في القرآن، أو حدث بينها تشابه في الألفاظ مع مفارقات بالتقديم والتأخير، أو الإيجاز والإطناب، أو الحذف والإثبات وغير ذلك. **وقد قسمت هذا البحث علي ثلاثة فصول علي النحو التالي:**

الفصل الأول بعنوان: معنى متشابه نظم القرآن.

الفصل الثاني بعنوان:تكرار المتشابه

ويضم مبحثين:

- **المبحث الأول: فوائد التكرار.**
- **المبحث الثاني: هل التكرار من أجل بني إسرائيل خاصة؟**

الفصل الثالث بعنوان:وسائل توجيه المتشابه

وإني إذ أقدم هذا البحث الموجز لأرجو من الله عز وجل أن أكون قد وفقت في إبراز أهم جوانبه، فإذا كان الأمر كذلك، فلله الحمد من قبل ومن بعد، وإلا فحسبي أني اجتهدت لأحقق ذلك، والأمل في الله كبير، فهو حسبنا وولينا، ونعم المولى ونعم النصير، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلي يوم الدين.

الفصل الأول

معنى متشابه النظم

معنى متشابه نظم القرآن

إذا أردنا أن نقف علي المقصود من هذا المصطلح – أعني مصطلح متشابه نظم القرآن – عند المشتغلين بالقرآن وعلومه فلابد لنا من أن نقف قبل ذلك علي معنى التشابه في اللغة، ثم المقصود منه هنا، كذلك لابد لنا من معرفة النظم لغة، والمقصود منه في جانب القرآن حينما نقول نظم القرآن.

فإذا فعلنا ذلك وضممنا أحد المركبين الإضافيين إلي الآخر تبين لنا المراد من قولنا " متشابه نظم القرآن"

أولاً: معنى المتشابه

يقول ابن منظور في لسان العرب:

"**الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشبيه:** المِثْل، والجمع أشباه، وأشبه الشيءُ الشيءَ ماثله، **وفي المثل:** من أشبه أباه فما ظلم.

وأشبهت فلانا، وشابهته، واشتبه علي، وتشابه الشيئان واشتبها، وأشبه كل واحد منهما صاحبه، وفي التنزيل (**مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**) (الأنعام: ٩٩)

والمشتبهات من الأمور: المشكلات، والمتشابهات المتماثلات.

والتشبيه: التمثيل.

والشبهة: الالتباس، وأمور مشتبهة، ومُشَبَّهة، مُشْكِلِة يشبه بعضها بعضاً، **وشَبَّه عليه:** خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره.

مما سبق يتبين لنا أن المتشابه والمشتبه لفظان يفيدان المشاركة بين شيئين في بعض الصفات أو الكيفيات.

ومنه قوله تعالى (**وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**) (الأنعام:٩٩) وفي الآية رقم ١٤١ من السورة نفسها ورد قوله تعالى(**وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**) (الأنعام:١٤١).

كما يتبين لنا أيضاً أن المتشابه كما يطلق علي التماثل يطلق أيضاً علي الالتباس، وذلك في حالة ما إذا كان الشيئان المشتركان في صفة من الصفات قد بلغا في تلك المشاركة مبلغاً كبيراً.

لأن الذهن قد يعجز عن التمييز بين تلك المتماثلات، ومنه قوله تعالى **(كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً)** (البقرة: ٢٥).

قال ابن منظور:"قال المفسرون:متشابهاً يشبه بعضه بعضاً في الصورة ويختلف في الطعم، لأن صورته الصورة الأولي، ولكن اختلاف الطعم مع اتفاق الصورة أبلغ وأغرب عند الخلق" (١).

وفي مثل هذا الاشتباه يقول الشاعر:

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

والناظر في القرآن يرى أن هذين المعنيين للتشابه أعني المماثلة، والالتباس المؤدي إلي عدم تحديد المراد، قد استعملا في جانب القرآن الكريم.

فمن الأول قوله تعالى: **(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا)** (الزمر:٢٣).

أي أن آياته كلها متماثلة في بلوغها قمة الفصاحة والبلاغة إلي حد الإعجاز، وفي بلوغها ذروة الهداية للناس، إلي أحسن حال وأفضل مآل.

كما أنها كلها محكمة، كما جاء في آية أخرى **(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)** (هود:١).

أي جميع آياته محكمة، أي صانها الله تعالى عن كل باطل، وجعلها متضمنة لكل خير، كما قال في آية أخرى **(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)** (فصلت: ٤٢).

ومن الاستعمال الثاني للتشابه في جانب القرآن قوله تعالى **(هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)** (آل عمران:٧).

أي منه آيات واضحات للدلالة علي المراد، ومنه آيات غير واضحة الدلالة على المراد وإنما استأثر الله تعالى بعلمها.

والمقصود من المتشابه هنا في موضوع متشابه نظم القرآن هو المماثلة، كما سيتبين لنا بعد قليل إن شاء الله من نقاط هذا البحث، لأن العلماء الذين اعتنوا بهذا الموضوع كان كل اهتمامهم منصباً علي الآيات التي تكرر لفظها كما في قوله تعالى **(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)** (الرحمن).

وقوله تعالى: **(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)** (المرسلات).

---

(١) لسان العرب: شبه.

وكذلك تلك الآيات المتماثلة في الصورة مع اختلاف في التركيب بشيء من التقديم والتأخير، أو الزيادة والنقصان وغير ذلك مما سيتضح قريباً إن شاء الله.

وبذلك يتبين لنا أن المقصود من المتشابه هنا هو التشابه اللفظي وليس ما يقابل المحكم، في قوله تعالى **(مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)** (آل عمران:٧) لأن التشابه في آية آل عمران يقصد به التشابه المعنوي لا اللفظي.

ثانياً: معنى النظم

أما النظم لغة: فقد قال عنه ابن دريد في كتابه جمهرة اللغة "النظم: نظمك الخرز وغيره، والنظام كل شيء منظوم (٢).

وقال الأزهري في تهذيب اللغة: "قال الليث: النظم: نظمك الخرز بعضه إلي بعض، في نظام واحد، كذلك هو في كل شيء، حتى يقال ليس لأمر نظام، أي لا تستقيم طريقته، حتى يقال طعنه بالرمح فانتظم ساقيه، أو جنبيه" (٣)

وجاء في تاج العروس للزبيدي: "النظم: التأليف، وضم شيء إلي شيء آخر، وكل شيء قرنته بآخر فقد نظمته، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظماً ونظاماً ألفه وجمعه في سلك فانتظم، ومنه نظمت الشعر" (٤).

وقال ابن منظور في لسان العرب: "النظم: التأليف، وكل شيء قرنته بآخر، أو ضممت بعضه إلي بعض فقد نظمته، والانتظام الاتساق" (٥) .

مما سبق يتبين لنا:

١- أن النظم يطلق علي: الضم، مع الاتساق والائتلاف.

٢- وأنه يشمل المحسوسات والمعنويات.

فمن المحسوسات: ضم الخرز، بعضه إلي بعض، واللؤلؤ بعضه إلي بعض في سلك.

ومن المعنويات: تأليف الشعر، واستقامة الأمر، علي أحسن ما يكون.

---

(٢) جمهرة اللغة لابن دريد: ١٢٥/٢.

(٣) تهذيب اللغة للأزهري: ٣٩١/١٤.

(٤) تاج العروس للزبيدي: ٧٦/٩، ٧٧.

(٥) لسان العرب: مادة (نظم).

ثالثاً: المراد من نظم القرآن

وعلي ذلك فإن المراد من نظم القرآن هو:

تأليف حروفه وكلماته، وجمله، بطريقة هي غاية في التناسق والتناسب، وبمنتهى الدقة والإحكام، لتؤدي المعنى المراد علي أبلغ ما يكون التعبير، وأجمل ما يكون التصوير، شأن نظم اللؤلؤ في السلك ليبدو العقد في نظر الناظرين، علي أحكم ما يكون التناسب، وأقوى ما يكون التماسك، وأجمل ما يكون التناسق.

يقول الباقلاني رحمه الله – في حديثه عن القرآن وإعجازه:

"إنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة، إلي الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه".

ثم يقول: " فالذي يشتمل عليه بديع نظمه، المتضمن للإعجاز وجوه، منها ما يرجع إلي الجملة، وذلك أن نظم القرآن – علي تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه – خارج عن المعهود، من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلي أعاريض الشعر، علي اختلاف أنواعه، ثم على أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلي أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلي معدل موزون غير مسجع، ثم إلي ما يرسل إرسالاً.

وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق" (٦).

رابعاً: المقصود من متشابه نظم القرآن

بعد أن اتضح لنا كل من معنى التشابه هنا، ومعنى نظم القرآن، أصبح من السهل معرفة معنى هذا المركب الإضافي.

يقول الخطيب الإسكافي – وهو أول من قرع هذا الباب – في كتابه درة التنزيل وغرة التأويل:

"إني منذ خصني الله بإكرامه وعنايته، وشرفني بإقراء كلامه ودرايته، تدعوني دواع قوية، يبعثها نظر وروية، في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة، تطلبا

---

(٦) إعجاز القرآن للباقلاني: ٥١، ٥٢ باختصار.

لعلامات ترفع لبس إشكالها، وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها فعزمت عليها بعد أن تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين، وفتشت علي أسرارها معاني المتأولين المحققين المتبحرين" (٧) .

ويعرفه ابن الزبير الغرناطي بقوله: "ما تكرر من آياته لفظاً، أو اختلف بتقديم أو تأخير، وبعض زيادة في التعبير" (٨).

وعرفه الزركشي بقوله: "إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة" (٩) .

وبالتأمل في تلك التعريفات السابقة نرى أن تعريفي الإسكافي والغرناطي أدق تحديداً، وأعم للمراد، من تعريف الزركشي الذي قصره علي وجود هذا التشابه في القصة الواحدة، ولكنه بالرغم من ذلك أعقب كلامه ذلك بقوله: "ويكثر في إيراد القصص والأنباء" وهذا تصريح منه بوجوده في غير القصص والأنباء.

وبناء علي ما سبق نستطيع أن نقول: إن المراد بمتشابه النظم في القرآن هو: "ما تكرر من القرآن لفظاً أو مع اختلاف في العبارة والتركيب بأي صورة من الصور، كالتقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، وإبدال حرف بآخر أو كلمة بأخرى، وغير ذلك.

وعلي هذا: فلو قال قائل إن المعنى واحد في التركيبين فهو صادق إن أراد المعنى الأصلي لكل منهما، فبين التركيبين شبه من هذه الجهة.

ولو قال قائل إن المعنى في التركيبين مختلف، فهو صادق أيضاً، باعتبار نظره إلي ما اعترض أحد التركيبين من عوارض زائدة علي المعنى الأصلي، اقتضاها المقام والسياق.

(تنبيه): المقصود في الأخبار القصصية هو المعنى لا اللفظ.

وها هنا أمر يجب التنبه له، ألا وهو إن العلماء اتفقوا علي أن ما جاء في القصص القرآني من كلام الأقوام السابقة لم يرد به الله تعالى نقل ألفاظهم التي قالوها أو قيلت لهم بعينها، وإنما أريد حكاية ما قيل بالمعنى، خاصة أن هؤلاء الأقوام كانوا عجماً، لا يتحدثون بالعربية التي جاء بها القرآن الكريم.

فحينما تحدث الله بلفظ عربي عن معنى أعجمي أتى بما يناسب هذا المعنى، بحيث لا يكون هناك تناقض بين اللفظ العربي والمعنى الأعجمي.

---

(٧) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي: ٢ ط مطبعة السعادة.

(٨) ملاك التأويل: ١/١٤٥ ط دار الغرب الإسلامي ببيروت.

(٩) البرهان: ١/٢٠٧.

يقول أبو السعود رحمه الله تعالى: "الذي يجب اعتباره في نقل الكلام إنما أصل معناه، ونفس مدلوله الذي يفيده، وأما كيفية إفادته له فليس مما يجب مراعاته عند النقل البتة، بل قد تراعى، وقد لا تراعى، حسب اقتضاء المقام، ولا يقدح في أصل الكلام تجريده عنها، بل يراعى عند نقله كيفيات وخصوصات لم يراعها المتكلم أصلاً، ولا يخل ذلك بكون المنقول أصل المعنى، ألا يرى أن جميع المقالات المنقولة في القرآن الكريم إنما تحكي بكيفيات واعتبارات لا يقدر علي مراعاتها من تكلم بها حتماً، وإلا لأمكن صدور الكلام المعجز عن البشر فيما إذا كان المحكي كلاماً" (١٠).

ويقول الإمام البقاعي رحمه الله: "المقصود من حكاية القصص في القرآن إنما هو المعاني، فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميع المعنى أو بعضه، ولم يكن هناك مناقضة فإن القصة كانت حين وقوعها بأوفى المعاني الواردة، ثم إن الله تعالى يعبر لنا في كل سورة تذكر القصة فيها بما يناسب ذلك المقام في الألفاظ عما يليق من المعاني، ويترك ما لا يقتضيه ذلك المقام" (١١).

---

(١٠) إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٢٢٠/٣، ط دار إحياء التراث العربي.

(١١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٠٤/١ ط دار الكتب العلمية.

الفصل الثاني

تكرار المتشابه

المبحث الأول: فوائد التكرار

المبحث الثاني: هل التكرار في القرآن من أجل بني إسرائيل خاصة ؟

المبحث الأول

فوائد التكرار

إن قضية التكرار – ومنه متشابه النظم – قضية شغلت الدارسين قديماً وحديثاً، وحسبما أفاء الله على كل منهم وجدناه ينضح بما عنده، ولكن العجب العجاب يتملك الإنسان حينما يرى من قوم طمست فطرتهم، وختم على قلوبهم يحاولون أن يجعلوا من الحسن سيئا، ومن الجميل قبيحا، فعابوا علي القرآن ظاهرة التكرار، بحجة أنه إذا كان المعنى الأصلي واحدا في كل المواضع، فلم لم يكتف بهذا المعنى الواحد بدلاً من الإتيان به مكررا، بل ذهب بهم الغباء إلي قولهم إنه إذا كان أحد الموضعين بليغاً كان الموضع الآخر غير بليغ.

ونحن بادئ ذي بدء نقول، ليس من حق أحد سلبت منه نعمة البصر والبصيرة أن يدعى بأن هذا الكون خال مما هو موجود فيه بالفعل، حيث إنه لم يره، ورحم الله المتنبي حينما قال:

وكم من عائب قولاً صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

وما أصدق الشاعر حينما قال:

وما ضر الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها

وما أحكم الآخر حينما أنشد:

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرًا به الماء الزلالا

ونحن في هذا المقام نوضح باختصار فوائد التكرار في القرآن ولا نملك أن نقول لهؤلاء المتغابين إلا ما قاله البحتري رحمه الله:

أهز بالشعر أقوامًا ذوي سنة لو أنهم ضربوا بالسيوف ما شعروا
على نحت القوافي من مقاطعها وما عليَّ أن تفهم البقر

فنقول وبالله التوفيق:

للتكرار – ومنه متشابه النظم – في القرآن فوائد كثيرة نقتصر منها علي ما يلي:

١- التكرار أسلوب سام من أساليب الفصاحة والبلاغة، التي تكشف عن معدن المتكلم، ويتفاوت فيها صناع الكلام.

قال الباقلاني رحمه الله:

"إن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا من الأمر الصعب، الذي تظهر فيه الفصاحة، وتتبين البلاغة" (١٢).

ويقول الزركشي رحمه الله:

"وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة، ظنا أنه لا فائدة له، وليس كذلك، بل هو من محاسنها، لا سيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيئ إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كررته توكيدا، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء" (١٣).

وقال أيضاً: "إن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة" (١٤).

٢- التكرار وسيلة من وسائل الإقناع المستعملة بين الناس.

لأن التكرار ضرب من ضروب تصريف القول، بإظهار معناه بعدة صور، وهذا الصنيع يفعل فعله في المشاعر والقلوب، فيجعلها تقرر ما كانت تنكره، وتستحسن ما كانت تستهجنه، وتقبل على ما كانت تنفر منه، ومن الكلام السائر: الكلام إذا تكرر تقرر.

من أجل ذلك اتخذ القرآن الكريم من التكرار وسيلة لإقناع الخصم بعقيدته النقية، وتشريعه السمح.

وإلي هذه الفائدة يشير قوله تعالى **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ)** (الإسراء: ٤١).

وقوله تعالى **(وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)** (طه:١١٣).

حدث هذا من قبل أن يضع العلماء قواعد علم النفس وأصول علم الاجتماع.

وبنظرة بسيطة إلي معاملات الناس وتجارتهم نراهم يستخدمون في ترويج سلعهم وإقناع غيرهم بها، أسلوب التكرار، مرات ومرات، بأساليب شريفة كريمة، وأخرى سافلة خليعة.

---

(١٢) إعجاز القرآن للباقلاني: ٨١ ط عالم الكتب.

(١٣) البرهان: ٩٦/٣.

(١٤) البرهان: ١١٠/٣.

فما بالنا إذا كان المجال مجال وعظ وإرشاد.

قال الزركشي معللا تكرار قوله تعالى(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**) في سورة الشعراء في ثمانية مواضع بقوله: "لأجل الوعظ، فإنه قد يتأثر بالتكرار من لا يتأثر بالمرة الواحدة" (١٥).

٣- ومن فوائد التكرار أيضا: إقامة الدليل الجلي على أن هذا القرآن من عند الله.

حيث إن التحدي من الله قد تسوهل فيه كما وكيفاً، فمن ناحية الكم تحداهم بأقصر سورة بدلا من التحدي بكامل القرآن، ومن ناحية الكيف سهل لهم الأمر أيضا، فلم يطالبهم بكل تلك السور للنظم القرآني للمعنى الواحد، وإنما اكتفى منهم بأي صورة من الصور، فإذا عجزوا عن المعارضة بإحداها فليوقنوا بأن هذا القرآن من عند الله تعالى.

قال أديب العربية مصطفى صادق الرافعي، وهو يتحدث عن الأسلوب القرآني:

"وها هنا معنى دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجبا، هو التكرار الذي يجئ في بعض آيات القرآن فتختلف في طرق الأداء، وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه، لتوكيد الزجر والوعيد، وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها، أو في بعض عباراته لتحقيق النعمة وترديد المنة، والتذكير بالنعم، واقتضاء شكره، إلي ما يكون من هذا الباب.

وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم، للتهويل والتوكيد، والتخويف، والتفجع، وما يجري مجراها من الأمور العظيمة، وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه، في كثير من كتب الأدب والبلاغة.

بيد أن وروده في القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته، وأنهم يخلون عنه لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهما، ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة، لأن المعنى الواحد يتردد في أسلوبه بصورتين أو صور، كل منها غير الأخرى وجها أو عبارة. وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة، ومستمرون علي العجز لا يطيقون ولا ينطقون. فهاذا لعمرك أبلغ في الاعجاز، وأشد عليهم في التحدي، إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز النفسي، الذي قد تمكن معه الاستطاعة، أو تتهيأ المعارضة حينا بعد حين إلي العجز الفطري، الذي لا يتأول فيه المتأول، ولا يعتذر منه المعتذرون، ولا يجري الأمر فيه على المسامحة" (١٦).

---

(١٥) البرهان: ٣/١٠٤.

(١٦) إعجاز القرآن للرافعي: ١٩٣، ١٩٤ ط دار الكتاب العربي، ببيروت.

والعجيب أن هذا التكرار للمعنى الواحد بصور مختلفة من التراكيب جاء على أعلى درجة من الفصاحة والبلاغة في كل صورة من صوره، وهذا التنوع مع المحافظة على ذروة الفصاحة والبلاغة إن دل على شيء فإنما يدل على أن القرآن من عند الله، وإلا لوجدنا فيه اختلافا كثيرا، وتباينا عظيما.

وفي ذلك يقول الباقلاني رحمه الله.

"وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بينا، ويختلف اختلافا كثيرا، ونظرنا في القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار، وعند تباين الوجوه، واختلاف الأسباب" (١٧).

٤– ومن فوائد التكرار أيضاً زيادة معنى جديد:

فقد قلنا أثناء حديثنا عن المراد من متشابه النظم في القرآن إنه لو قال قائل عن التركيبين، إن معناهما واحد كان صادقا، إن أراد المعنى الأصلي لكل منهما، لأن بينهما تشابها من هذه الجهة.

وكذلك لو قال إن المعنيين في التركيبين مختلفان كان صادقا أيضا، باعتبار نظره إلي ما اعترض أحد التركيبين من عوارض زائدة على المعنى الأصلي، اقتضاها المقام والسياق.

وعلى ذلك نقول: إن في التكرار زيادة فائدة، واقتضاها المقام والسياق، وكأن هناك عدة معان، وزعت على تلك التراكيب التي حدثت فيها تلك الاختلافات، خص كل تركيب بما يناسب مقامه وسياقه.

يقول الزركشي رحمه الله:

"إن القصة الواحدة من هذه القصص، كقصة موسى مع فرعون، وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى، فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان، وتقديم وتأخير.

وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ، فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه، لا يوقف عليه إلا منها، دون غيرها.

فكأن الله تعالى فرق ذكر ما دار بينهما، وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء علي تارات التكرار، لتوجد متفرقة فيها، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه، من الكتب المتقدمة، من انفراد كل قصة منها بموضع، كما وقع في القرآن، بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة" (١٨).

---

(١٧) إعجاز القرآن للباقلاني: ٥٦ ط عالم الكتب.

(١٨) البرهان: ٣/١١٠.

ثم بين الزركشي رحمه الله أن تلك الخاصية وحدها تتضمن في داخلها عدة معان عجيبة، فمن تلك المعاني التي ذكرها رحمه الله ما يأتي:

(أ) أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة، ولا أحدث مللا، فباين بذلك كلام المخلوقين.

(ب) ومنها: أنه ألبسها زيادة ونقصانا، وتقديما وتأخيرا، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئا معادا، فنزهه بذلك عن هذه التغييرات.

(ج) ومنها: ظهور الأمر العجيب، في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد، وقد كان المشركون في عصر النبي (ρ) يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم، وبيان وجوه التأليف.

فعرفهم الله سبحانه أن أمر ما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع علي كلامه عدد، لقوله تعالى **(قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)** (الكهف:١٠٩).

وكقوله تعالى **(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)**(لقمان:٢٧) (١٩).

٥- ومن فوائد التكرار أيضا: إيجاد مجال واسع لتدبر القرآن الكريم، الذي أمرنا بتدبره، في مثل قوله تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) (سورة ص ٢٩).

وقوله تعالى **(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)** (محمد:٢٤) فحينما يسمع الإنسان أو يقرأ تلك الآيات التي حدث فيها تكرار يجد نفسه أمام سبب من الأسباب عظيم للتأمل والتدبر والمقارنة، والتحليل والاستنباط.

وفي هذا النوع اهتمام بالقرآن كبير.

٦- تنشيط القارئ والسامع، وتحريك مشاعرهما و انتباههما كالذي يكون في حديقة متنوعة الأشجار والزهور، والخضروات والعطور.

يقول الزركشي رحمه الله:

---

(١٩) وانظر البرهان: ٣/١١١.

"إن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير، فيجد البليغ لما فيها من التغيير ميلا إلي سماعها، لما جلبت عليه النفوس، من حب التنقل في الأسئلة المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة" (٢٠).

المبحث الثاني

هل التكرار في القرآن من أجل بني إسرائيل خاصة؟

ذهب بعض العلماء في موضوع التكرار في القرآن مذهبا عجبا، حيث ادعوا أن هذا التكرار إنما جاء مراعاة لبني إسرائيل دون غيرهم من العرب والأعراب، فالعرب والأعراب إذا خوطبوا، أو حكى عنهم جاء الكلام موجزا، أما بنو إسرائيل فإذا خوطبوا أو حكى عنهم جاء الكلام مطنبا.

يقول الجاحظ:

"ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام" (٢١).

وهوذا أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين ينقل هذا الكلام السابق للجاحظ بالحرف الواحد (٢٢).

مما يدل على تأثره بذلك الرأي تمام التأثر.

بل إن أديب العربية مصطفى صادق الرافعي رحمه الله يؤيد هذا المذهب بحرارة حيث يعلق عليه بقوله: "وهو قول صحيح في الجملة" (٢٣).

وهؤلاء وإن اتفقوا على ذلك المذهب فإنهم قد اختلفوا في السبب الذي من أجله كان الكلام في جانب العرب والأعراب بالإيجاز والحذف وفي جانب اليهود بالبسط والتكرار.

ففريق يرى أن اليهود لا سليقة لهم كالعرب وليسوا في حكمهم من البيان، من أجل ذلك كان الكلام في جانبهم بالبسط والتكرار، أما العرب فقد اكتفى معهم باللمحة الدالة وبالإشارة الموحي بها.

يقول أبو هلال العسكري:

---

(٢٠) البرهان: ١١١/٣.

(٢١) الحيوان للجاحظ: ٩٤/١ ط مصطفى الحلبي، تحقيق عبد السلام هارون.

(٢٢) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري: ٢١٢ ط دار الكتب العلمية ببيروت.

(٢٣) إعجاز القرآن: ١٩٥ ط دار الكتاب العربي بيروت.

"وقل ما تجد قصة لبني إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ومكرورة، في مواضع معادة، لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم" (٢٤).

بينما يرى فريق آخر أن هذه التكرار في جانب اليهود إنما جاء مراعاة للأدب العبراني، فهو أسلوب من أسليب كلامهم، وإنما فعل معهم ذلك من أجل إعلامهم بمعاني الإعجاز القرآني.

وفي ذلك يقول الرافعي رحمه الله رافضا تعليل الفريق الأول وذاهبا إلي هذا التعليل الثاني: "وهو قول صحيح في الجملة، بيد أنهم أخطأوا وجه الحكمة فيه، فإن اليهود لم يكونوا من الغلظة والجفاء والاستكراه بحيث وصفوهم، أو بحيث يجوز ذلك في صفتهم، وإن فيهم لمتكلمين، وإن منهم الشعراء، والخطاب في القرآن كان يسمعه العرب واليهود جميعا، فلا هؤلاء ينكرون من أمره، ولا أولئك".

إلي أن يقول: "إنه في الحقيقة سر من أسرار الأدب العبراني جرى القرآن عليه، في أكثر خطابهم خاصة، ليعلموا أنه وضع غير إنساني، وليحسوا معنى من معاني إعجازه فيما هم بسبيله كما أحس العرب فيما هو من أمرهم" (٢٥).

تفنيد هذا المذهب

ونستطيع أن نفند هذا المذهب أيا كان تعليله من عدة نواح، نقتصر منها على ما يلي:

أولا: من خلال تلك الأهداف السامية الراقية التي ذكرناها سابقا، وقلنا إن التكرار جاء من أجلها.

فأين هذا الهدف الذي زعموه من وراء التكرار بإزاء تلك الأهداف؟ إن هذا لظلم لذلك التكرار، وإن هذا لشئ عجاب لو أغفلنا تلك الأسرار.

ثانيا: إن أصحاب هذا المذهب متناقضون في كلامهم، فبينما يدعون أن الله إذا خاطب العرب أو حكى عنهم جاء الكلام بطريق الإشارة والوحي والإيجاز، ينصون في أماكن أخرى على أن التكرار هو أسلوب من أساليب العرب، معروف لديهم، مستخدم فيما بينهم.

يقول الرافعي نفسه عن التكرار قبل إثارة هذا الموضوع بأسطر قليلة:

"وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم، للتهويل والتوكيد، والتخويف والتفجع وما يجري مجراها من الأمور العظيمة، وكل ذلك مأثور عنهم، منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة" (٢٦).

---

(٢٤) الصناعتين: ٢١٢.

(٢٥) إعجاز القرآن: ١٩٥.

(٢٦) إعجاز القرآن للرافعي: ١٩٤.

ثالثا: إن استقراء سريعا، وتدبرا هينا، ومقارنة بين الكلام الوارد عن الله بشأن العرب والأعراب، وبين كلامه عز وجل بشأن بني إسرائيل، يأتي على هذا المذهب من أساسه، فيخر عليه السقف من فوقه.

نستطيع أن نبين ذلك في النقاط الآتية:

(أ) كل القصص القرآني إلا نادرا ورد ذكره في السور المكية التي جاء الخطاب فيها للعرب والأعراب، أو حكي عنهم.

وقد لاحظنا على هذا القصص كله إلا النادر التكرار، مع الاختلاف والمفارقة في بعض التراكيب.

وانظر في ذلك السور المكية الآتية: الأعراف، وهود، ويونس، والحجر، ومريم، وطه، والأنبياء، والشعراء، والمؤمنون، والنمل، والعنكبوت، والقصص، والصافات، وص، وغافر، والزخرف، والدخان، والذاريات، والقمر، نوح، والمزمل، والنازعات.

(ب) وجدنا سورا مكية كان الخطاب فيها للعرب والأعراب، وحكاية عنهم ووجدنا تلك السور في غاية الطول والبسط والإيضاح، وليس كما يقول أصحاب هذا المذهب من الإيجاز والحذف والإشارة.

وانظر في ذلك سور الأنعام والأعراف ويونس وهود ويوسف والنحل والإسراء والكهف.

فهذه السور كان الحديث فيها للعرب والأعراب، وليس لبني إسرائيل، إلا ما جاء عنهم في سورة الأعراف.

(جـ) هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم وردت في شأن الأعراب خاصة بل ذكرت هذه الصفة بالذات فيها، ومع ذلك فقد وجدنا تلك الآيات جاء الكلام فيها على سبيل البسط والإيضاح، وليس على سبيل الإشارة والوحي.

وانظر في ذلك ما جاء عنهم في سورة التوبة من الآية ٩٠ إلي الآية ١٠١، ومن الآية ١٢٠ إلي الآية ١٢٢.

وما جاء عنهم في سورة الفتح من الآية ١١ إلي الآية ١٧.

بل إذا نظرنا إلي سورة الحجرات وجدنا معظم آياتها نزلت لتهذب طباع هؤلاء الأعراب، وتؤدبهم بأدب الإسلام، كل ذلك جاء بإيضاح كامل تام، وشرح واضح واف.

(د) إن ظاهرة متشابه النظم في القرآن والتي تعني تكرار المعنى الأصلي بطرق متعددة، وبصورة مختلفة من التراكيب لم تختص بالحديث عن بني إسرائيل، بل جاءت أيضا في الحديث عن العرب والأعراب.

بل إن هناك آيات حدث فيها هذا التكرار دون أن يكون لبني إسرائيل ذكر فيها.

وانظر في ذلك على سبيل المثال ما يأتي:

الآية ١٧ من سورة الأنعام مع الآية ١٠٧ من سورة يونس.

ففي الآية الأولي يقول تعالى (**وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**).

وانظر الآيتين ٩٩، ١٤٢ من سورة الأنعام:

حيث يقول في الأولى:

(وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ).

ويقول في الثانية:

(وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)

وانظر الآية ١٤٨ من سورة الأنعام مع الآية ٣٥ من سورة النحل:

حيث يقول في الأولى: (**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم**).

ويقول في الثانية: (**وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**).

وفي سورة الأعراف يقول تعالى (**قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ**)

وفي سورة الحجر وسورة ص يقول (**قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**).

وفي سورة الذاريات (**إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ، وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ**)

وفي المرسلات (**إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ**)

وفي الذاريات (**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**)

وفي المعارج (**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**)

وفي سورة القمر (**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**) وردت مرتين في قصة عاد، ولم تذكره إلا مرة واحدة في قصة قوم نوح، وقصة ثمود.

وفي الآية الأولى من سورة الحديد جاء قوله تعالى (**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) وفي سائر المسبحات (**وَمَا فِي الْأَرْضِ**).

ثم في سورة الحديد وسورة الحشر وسورة الصف (**سَبَّحَ**) بلفظ الماضي، وفي سورة الجمعة والتغابن (**يُسَبِّحُ**) بلفظ المضارع.

وغير ذلك كثير وكثير، مما يدل على أن تكرار المعنى الأصلي بطرق متعددة وبصور مختلفة من التراكيب ليس قاصرا على الحديث عن بني إسرائيل، بل إن كثيرا منه قد ورد عن العرب والأعراب خاصة، دون أن يكون لبني إسرائيل ذكر بالمرة في سياق الحديث.

رابعا: القول باختصاص بني إسرائيل بالحديث عنهم دون غيرهم بأسلوب التكرار والبسط – مع مخالفته للواقع القرآني – يقصر هذه الظاهرة على نطاق ضيق، بينما هي أوسع بكثير من هذا النطاق الضيق الخاص ببني إسرائيل، كما اتضح هذا بجلاء في الفصل الثالث.

خامسا: إن ظاهرة البسط والتكرار، أو الإيجاز والإطناب إنما تخضع لسياق الكلام وسباقه ولحاقه، فلكل مقام مقال فإذا اقتضى الكلام إطنابا وجب الإطناب، وإذا اقتضى إيجازا وجب الإيجاز بصرف النظر عن هوية المخاطبين.

وأبو هلال العسكري نفسه أحد القائلين بهذا المذهب المرفوض يسلم معنا بذلك تسليما بينا.

حيث يقول في كتاب "الصناعتين":

"والقول القصد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام، وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع.

فالحاجة إلي الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن وجهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ" (٢٧).

---

(٢٧) الصناعتين: ١٩٦.

الفصل الثالث

وسائل توجيه متشابه النظم

سلك العلماء رحمهم الله تعالى في توجيه متشابه النظم توجيهات عدة، واعتمدوا على وسائل كثيرة بينوا من خلالها الحكمة من وجود هذا التشابه، والهدف من هذه المفارقات منبهين على أن لكل مقام مقالا، وأن السياق في كل موضع نوسب له نظم خاص يفارق به غيره.

وكان من أبرز الوسائل التي اعتمد عليها العلماء في توجيه متشابه النظم ما يأتي:

أولا: القرآن الكريم

وهذه أعظم وسيلة اعتمد عليها العلماء في توجيه المتشابه، ذلك أنها تعتبر من باب تفسير القرآن بالقرآن.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى:

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان، فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر. (٢٨).

ومن صور اعتماد العلماء على القرآن في توجيه متشابه النظم ما يأتي:

(١) سياق الآيات، أي مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها.

مثال ذلك:

في قوله تعالى: (ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الأنعام: ١٠٢).

وقوله: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (غافر: ٦٢)

وفق العلماء هنا بين التقديم والتأخير، في قوله **(لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)** عن طريق سياق الآيتين:

حيث قالوا: "إن آية الأنعام لما تقدم فيها قوله تعالى **(وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ)** وقوله تعالى **(أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ)** كان الملائم نفى ما جعلوه وادعوه من الشركاء والصاحبة والولد، فقدم ما الأمر عليه من وحدانيته سبحانه وتعالى عن

---

(٢٨) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: ٩٣ ط مؤسسة الرسالة.

الشركاء والولد، فقال: (**لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**) وعرف العباد بعد بأن كل ما سواه سبحانه خلقه وملكه فقدم الأهم في الموضع.

وأما آية غافر، فتقدمها قوله تعالى (**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**) ثم قوله تعالى (**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا**) فلما تقدم ذكر الخلق الأعظم، ولم يتقدم هنا ما تقدم في آية الأنعام ما أتبع بالتنبيه على أنه سبحانه خالق كل شئ، فكان تقديم هذا التعريف هنا أنسب وأهم، ثم أعقب بالتعريف بوحدانيته تعالى، فجاء كل على ما يجب ويناسب، ولم تكن واحدة من الآيتين لتناسب ما تقدم الأخرى. (٢٩).

ونستطيع أن نقول إن معظم توجيه العلماء لمتشابه النظم إنما يقوم على هذه الوسيلة، أي على مراعاة سياق الآيات.

(٢) ومن صور اعتمادهم على القرآن مراعاة المناسبة بين السورتين المتجاورتين.

ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

قوله تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) مع قوله تعالى (**وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ**) (الشورى: ٥)

فما سر تخصيص الاستغفار للمؤمنين في سورة غافر وتعميمه في سورة الشورى؟

عن ذلك يجيب ابن الزبير الغرناطي في ملاك التأويل (٩٩٨/٢) بقوله:

"اعلم أن ذلك جار بحسب المناسبة، ولما تقدم الآية الأولى فيما ختمت به سورة الزمر من ذكر المتقين في قوله تعالى (**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا**) وقول الملائكة لهم عند دخولهم الجنة (**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**)

وقول الداخلين عند دخولها (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ**) إلي ختام السورة.

ثم تبع ذلك قوله تعالى في مطلع سورة المؤمن (غافر): (**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ**) ناسب هذا استغفار الملائكة للمتصفين بصفات المذكورين، ويشهد لهذا ما ورد بعده من قوله تعالى مخبرا عن ملائكته بقولهم داعين (**فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ**) وأما قوله تعالى أثناء هذه الآية (**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ**) وقوله (**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ**)إلي قوله (**فَأَخَذْتُهُمْ**) فتأنيس للمؤمنين، وباعث على شكر النعمة

---

(٢٩) ملاك التأويل: ٤٦٨/١، ٤٦٩.

على ما من به عليهم من هدايتهم وسلامتهم، من موجب أخذ من كذب وعاند، فإن التناسب في هذا كله.

وأما سورة الشورى فتقدمها قوله تعالى في خاتمة سورة السجدة **(فُصِّلَتْ) (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)** إلي قوله تعالى **(أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ)**.

ثم أتبع هذا في مطلع سورة الشورى بقوله تعالى **(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)** فناسب هذا استغفارهم لمن في الأرض، لعظيم ما تقدم منهم، مما أشار إليه قوله تعالى **(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ)** فلولا حلمه تعالى لتعجل هلاكهم، فاستغفار الملائكة إبقاء سبحانه عليهم، إذ لا يفوتونه، وقد يؤمن من سبقت له السعادة منهم فقد وضح مناسبة الوارد في الموضعين، لما بني عليه، وإن عكس الوارد غير مناسب (٣٠).

وانظر في ذلك أيضا توفيقه بين الآية ١٦٤ من سورة البقرة مع الآية الخامسة من سورة الجاثية.

(٣) ومن صور اعتمادهم على القرآن في توجيه المتشابه مراعاة الترتيب الكتابي كما هو موجود في المصحف الآن لسور القرآن الكريم.

ومن أمثلة ذلك ما فعله الغرناطي في سورة الأعراف في الآيات الخاصة بقصة آدم وإبليس والملائكة وورودها موجزة مرة ومطولة أخرى، وأنها قدمت موجزة أولا ثم جاء الإطناب في لسور الأخرى بعد ذلك.

حيث يقول: (فإن قلت: فما وجه تقديم الموجز على المطول؟

قلت: شبه ذلك بالمجمل من الكلام والمفصل، وإنما يرد التفصيل بعد الإجمال، فهذا الجواب منزل على الترتيب الثابت والله أعلم) (٣١).

ثانيا: القراءات

ومن وسائل اعتماد العلماء في توجيه المتشابه القراءات، ومن أمثلة ذلك: ما ذكره العلماء في التوفيق بين إفراد(آية)في سور الأنعام في الآية رقم٣٧، وجمعها في سورة العنكبوت الآية ٥٠.

يقول ابن الزبير الغرناطي: قوله تعالى **(وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ)** في قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر وحفص، ولم يختلف في توحيد لفظ (آية) في الأنعام، والمقصود واحد.

---

(٣٠) ملاك التأويل: ٩٩٨/٢ – ١٠٠٠.

(٣١) المصدر السابق: ٤٩١/١.

ووجه ذلك والله أعلم: أن (لولا) في الآيتين تحضيض، وإنما يجري في كلامهم عندما يراه المتكلم به أولى أو أهم، في مقصود، أو أتم في مطلب ما، إلي أشباه هذا مما يستدعي التحضيض.

ولما تقدم قبل آية الأنعام ذكر دلائل من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، التنبيه بحال من كذب وعاند إلي ما تبع ذلك من الآيات التي يحتاج فيها إلي النظر وإعمال الفكر، وكان مظنة لتغليظ الجاحد، فطلبوا آية تبهر ولا يحتاج معها إلي كبير نظر، كناقة صالح (υ)، أو شبه ذلك، فافتحوا فيما ذكره سبحانه عنهم بأداة لولا التحضيضية، حرصا على ما طلبوه، وأتوا بالفعل مضعفا لما أرادوه من التأكيد، فقالوا **(نُزِّلَ)**، وأفردوا (آية) لما قصدوه من أنه عليه السلام جاءهم بآية واحدة من الضرب الذي طلبوه، وهذا مناسب.

وقد صرحوا بما طلبوه من هذا الضرب بالذي ذكرناه في قولهم **(لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ .....)** الآية (الإسراء: ٩٠) وفي قولهم **(لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا)** (الفرقان: ٢١) إلي ما أشبه هذا، فقال تعالى: قل لهم يا محمد، إن الله قادر على أن ينزل آية، ولكن أكثرهم لا يعلمون، أي لا يعلمون ما كان يعقبهم ذلك لو وقع على وفق اقتراحهم، من تعجيل أخذهم وهلاكهم، كما جرى لغيرهم من الأمم، كقوم صالح (υ) وغيرهم.

وقد قدم لهؤلاء التنبيه على ذلك، في قوله تعالى **(وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ)** (الأنعام: ٨)، وأيضا ففي ذلك من الحكمة ما سبق في علمه تعالى من هداية من شاء وإضلال من شاء، وليرفع بالعلم والنظر من هداه إليه وفقه، فلو ورد هذا الفعل غير مضعف ولم تفرد آية لما أحرز هذا المعنى.

أما آية العنكبوت: فقد تقدم قبلها قوله تعالى **(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)** وتأخر بعده قوله تعالى **(قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ)** فلم يكن ليتناسب بعد اكتناف هذه الجموع توحيد آية، ثم إن هذه الآية لم يتقدمها من التهديد وشديد الوعيد ما تقدم آية الأنعام، فناسب ذلك ورود الفعل غير مضعف، وجاء ذلك كله على ما يجب، ولم يكن عكس الوارد ليناسب، والله أعلم) (٣٢).

---

(٣٢) ملاك التأويل: ١/ ٤٥٠ – ٤٥٢.

ثالثا: أسباب النزول

ومن الوسائل المنتشرة لدى العلماء في توجيه متشابه النظم، أسباب النزول، ومن هذه الأمثلة ما يأتي:

ما ذكره الخطيب الإسكافي في توجيه قوله تعالى **(قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا)** (المائدة:١٧)، مع قوله تعالى في سورة الفتح **(قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا)** بزيادة **(لَكُم)** الآية رقم ١١، حيث قال: إن هذه الآية في سورة الفتح نزلت في قوم تخلفوا عن رسول الله (ρ)من غير عذر، وتأخروا عن الجهاد وقالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا، ثم سألوه (ρ)أن يستغفر لهم، يكتمون بذلك نفاقهم ويظهرون وفاقهم، وقصدهم استمالته، كيلا تضرهم عدواته، فقال عز وجل قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا، ومن يملك لكم ضرا إن أراد بكم نفعا، فلما كان في قوم مخصوصين احتيج إلي **(لَكُم)** للتبيين، فأما في هذه السورة فإنها لم تنزل لفريق مخصوص دون فريق، بل عم بها دليله إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا، فلما سيقت الآية إلي العموم لم يحتج إلي **(لَكُم)** التي للخصوص (٣٣).

رابعا: الأحاديث النبوية

كذلك اعتمد العلماء في توجيه متشابه النظم على أحاديث الرسول (ρ) ، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

١- ما استشهد به الغرناطي في التوفيق بين قوله تعالى **(وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)** (البقرة:١٨٧) وبين قوله تعالى في السورة نفسها **(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا)** (الآية:٢٢٩)، حيث قال رحمه الله تعالى:

(إن النهي عن مقاربة الشئ عنوان على تأكيد التحريم وتغليظه، ولما كان قرب النساء بالمباشرة وما يجاري ذلك داعيا إلي المواقعة، قل من يملك في ذلك نفسه ويغلب هواه، ولذلك قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (**وأيكم يملك إربه**) (٣٤).

إلى أن قال: (فأما إذا قصد بيان عام وفارق بين ما يحل ويحرم، فلا يقع النهي عن مقاربة، إذ لم يقصد إلا فرقان حاجز بين ما يحل ويحرم ولم يقصد بيان حال محرم ما، من شدة أو خفة، فإنما النهي في مثل هذا عن تجاوز حد مضروب بين محرم ومحلل) (٣٥).

---

(٣٣) درة التنزيل وغرة التأويل: ٧٩، ٨٠.

(٣٤) أخرجه البخاري، كتاب الحيض باب (٥) ومسلم في الحيض باب (٢).

٢- ومن أمثلة الاعتماد على الحديث في التوجيه أيضاً، ما وجهوا به المفارقات الواقعة في قوله تعالى: من سورة النساء **(وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)** (النساء:١٢٨)، وقوله تعالى في الآية التي تليها مباشرة **(وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)** (النساء:١٢٩).

ففي الأولي **(وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ)** وفي الثانية **(وَإِن تُصْلِحُواْ)** وختام الأولى **(خَبِيرًا)** والثانية **(غَفُورًا رَّحِيمًا)**.

قال الغرناطي رحمه الله تعالى: (إن الآية الأولى فيما بين المرأة وزوجها، فإن خافت منه وأرادت تآلفه وبقاءه وكينونتها في عصمته، فلا جناح عليهما أن تعطي شيئا من نفسها، وتترك بعض حقها.

كأن تؤثر ضرتها في القسمة، أو تترك هي حظها كما فعلت سودة رضي الله عنها، أو تهب له من حالها، لا جناح عليها في هذا، ولا على زوجها في قبول ذلك منها، وإن كان الطبع يأبى من إسقاط حق أو تنقصه، لما جبلت عليه النفوس وإليه الإشارة بقوله تعالى **(وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ)** (النساء:١٢٨) ثم قال تعالى: **(وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ)** فندب كلا منهما إلى الإحسان والتقوى، والزوج أخص بذلك وأولى وأن يحتمل كل منهما من صاحبه ويصبر، فإن الله مطلع عليه، بما يكنه ويخفيه.

ثم قال **(وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ)**(النساء:١٢٩) لأن القلوب لا تملك، ولا بيد صاحبها فسادها ولا صلاحها فإن عدل في القسمة والمحادثة والإنفاق والنظر، وبشاشة الوجه وجميل الملاقاة وفرضنا اجتهاده في ذلك كله حتى تصل المساواة، لم يقدر أن يميل بقلبه إلي كلهن على حال سواء.

(فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ) (النساء:١٢٩) بل على الإنسان أن يجتهد، وفي الحديث عنه (ρ) **(اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك)** (٣٦).

(فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ) لا ممسكة ولا مطلقة، ثم قال تعالى **(وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ)** والمراد ما استطعتم وكان في إمكانكم فإن الله يغفر لكم ما سوى ذلك.

---

(٣٥) ملاك التأويل: ١/٢٥٨، ٢٥٩.

(٣٦) الترمذي: نكاح (٤) وأبو داود: نكاح (٣٨).

والآية الأولى مقصودها يستدعي ما ختمت به من أنه تعالى خبير بأفعال عباده وأعمالهم الظاهرة والباطنة.

ومساق هذه الأخرى يستدعي مغفرته تعالى، إذ قد عرفت الآية أن العدل لا يستطاع، فإن لم تكن المغفرة هلك المكلف فورد أعقاب كل آية بما يناسب. وأما ورود (**وَإِن تُحْسِنُواْ**) في الآية الأولى وورود (**وَإِن تُصْلِحُواْ**) هنا فمفهوم مما تمهد (٣٧).

خامسا: النحو

كذلك اعتمدوا النحو وسيلة أصيلة وفي غاية الأهمية لتوجيه متشابه النظم، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

قوله تعالى في سورة المؤمنون في قصة نوح (**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**) (المؤمنون:٢٤) وفي الآية التي بعد هذه القصة (**وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**) (المؤمنون:٣٣).

يقول الخطيب الإسكافي:

(للسائل أن يسأل عن تقديم (**مِن قَوْمِهِ**)في الآية الأخيرة وتأخيره في الآية الأولى، وهل كان يصلح أحدهما مكان الآخر؟

الجواب: أن يقال: لما انقطعت صفة الملأ في الآية الأولى إلى المحكى من قولهم قرن الوصف بالذين إلى الموصوف ثم جيء بالجار والمجرور، فكان منتهى بيان فاعل قال، ولم يكن كذلك القصد في الآية الأخيرة، لأنه عددت أفعال العطف على الفعل الذي هو صلة الذي، فقدم الجار والمجرور لئلا يحول بين الصفة والموصوف عليها، فقال (**وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) (المؤمنون:٣٣).فكان كل ذلك مما أتبع قوله تعالى (**كَفَرُوا**)، ولو قال: وقال الملأ الذين كفروا من قومه وكذبوا بلقاء الآخرة لم يكن على النظم المرتضى فيما يستفصح من الكلام، وإن كان جائزا، فلذلك قدم الجار والمجرور في الأخيرة، وأخر في الأولى (٣٨).

سادسا: اللغة

كما يعتمد العلماء في توجيههم لمتشابه النظم على إحاطتهم باللغة، ودلالة كل لفظ على معناه.

---

(٣٧) ملاك التأويل: ١/ ٣٥٤.

(٣٨) درة التنزيل: ٢٥٦، ٢٥٧.

ومن أمثلة ذلك:

ما وجهوا به قوله تعالى **(وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً)** (النساء:٢٢)، مع قوله تعالى **(وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً)** (الإسراء:٣٢).

فما وجه زيادةَ **(مَقْتًا)** في سورة النساء دون سورة الإسراء؟

يقول الغرناطي:

(الجواب عن ذلك أن تقول، إن المقت هو النقص والاستحقار ومتزوج امرأة أبيه فاعل رذيلة يمقت فاعلها ويشنأ، وتستخسه الطباع السليمة، فوسمت فعلته بالمقت وساوت الزنا فيما وراء ذلك، فلهذا زيد في آية النساء قوله **(ومَقْتًا)** (٣٩).

سابعا: الاشتقاق

كذلك اعتمدوا رحمهم الله تعالى على الاشتقاق، ومن أمثلة ذلك: ما وجهوا به التكرار الوارد في **قوله تعالى: (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)**، (القيامة: ٣٤، ٣٥) وفائدته، وحقيقة هذا اللفظ.

حيث قال الخطيب الإسكافي:

(للسائل أن يسأل عن تكرير ذلك، وعن الفائدة فيه وعن حقيقة اللفظ واشتقاقه).

والجواب (أن يقال: اللفظة مشتقة من ولى يلي إذا قرب منه قرب مجاورة، فكأنه قال: الهلاك قريب منك مجاور لك بل هو أولى وأقرب.... الخ) (٤٠).

بينما قال الغرناطي (وقد جعله بعضهم مقلوبا، من قولك ويل، فهو على ذلك من الدعاء بالويل. وكأن قد قيل للمخاطب به أعظم الويل وأشده له .... الخ (٤١).

ثامنا: الفنون البلاغية

كذلك اعتمد علماؤنا رحمهم الله في توجيه متشابه النظم على الأسرار البلاغية، فإذا كانت البلاغة هي مطابقة المقام لمقتضى الحال فلا بد أن تراعى تلك الأسرار في ذلك التوجيه.

ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

---

(٣٩) ملاك التأويل: ١/٣٤٠، ٣٤١.

(٤٠) درة التنزيل: ٣٨١.

(٤١) ملاك التأويل: ٢/١١٢١.

١- في توجيه متشابه النظم بين قوله تعالى في سورة آل عمران: **(وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ)** (آل عمران:١٣٣)، وقوله تعالى في سورة الحديد **(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ)**(الحديد:٢١).

يطرح ابن الزبير الغرناطي ثلاثة أسئلة ويجيب عنها في المفارقة بين النظمين ومن هذه الأمثلة تساؤله عن سر حذف المضاف في الأولى ومجيء كاف التشبيه في الثانية عوضا عنه، فيقول:

(إن آية آل عمران على حذف المضاف كما تقدم، أي عرضها مثل عرض السموات والأرض، وقد أفصحت آية الحديد بما يقوم مقام هذا المضاف، ويحصل معناه، وهو كاف التشبيه، إذ معناه معنى مثل وحذف المضاف مما يكون كثيرا عند قصد المبالغة، وكذا جعل الشيء نفس الشيء، وهو مما تقدم في آية آل عمران، وهو نحو قول الشاعر:

إن الربيع الجود والخريفا يدا أبي العباس والضيوفا

وهذا كثير، وإليه يرجع الوارد في قولهم: نهارك صائم وليلك قائم، وباب ذلك مما يقصد به المبالغة.

فيجعل نفس الشيء، وأنشد سيبويه رحمه الله نحوا من ذلك:

أما النهار ففي قيد وسلسلة والليل في بطن منحوت من الساج

فجعل النهار في قيد وسلسلة، وجعل الليل في بطن منحوت من الساج، مبالغة، وإنما المجعول الشخص، وقوله تعالى **(عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ)** يمكن إلحاقه بهذا القبيل، وإن ظن أنه يباينه والجامع قصد المبالغة، كأن السموات والأرض إذا أوصل بعضها ببعض مصطفا نفس عرض الجنة.

إلى أن قال: (فلما تضمنت آية آل عمران من قصد المبالغة من هذه الجهات والقرائن التي ذكرنا ما لم تتضمن آية الحديد ناسب ذلك بالمضاف المقدر، الذي لابد منه عند بيان المعنى على ما تقدم.

ولما لم يقصد في آية الحديد ذلك أفصح فيها بما يعطي معنى مثل، وهي كاف التشبيه، وورد كل على ما يناسب ويلائم (٤٢).

---

(٤٢) ملاك التأويل: ١/٣١٦ - ٣٢٠.

٢- ومن ذلك أيضا ما وجهوا به زيادة (منه) في قوله تعالى **(فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ)** (المائدة:٦)،دون ذكرها في سورة النساء**(فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)** (النساء:٤٣) كما وجهوا الواقع فيما أعقبته كل آية منهما، والواقع من الطول فيما أعقبت به آية المائدة.

ونختار من التوجيهات الثلاثة – نظرا لطولها – التوجيه الخاص بالإطناب في سورة المائدة والإيجاز في سورة النساء.

حيث قالوا: "إن آية النساء غير مقصود بها ما قصد بآية المائدة من الإطناب، وتأمل ما انطوت عليه كل آية منها من عدد الكلم والحروف، من لدن قوله تعالى في النساء **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى)** إلى قوله **(وَأَيْدِيَكُمْ)** وقوله في المائدة **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ)** إلى قوله: **(وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ)**، تجد آية العقود (المائدة) يزيد عدد حروفها على آية النساء بضعاً وثلاثين حرفاً، فلما أطيل في هذه ناسبها ما أعقبت به وبني عليها من قوله: **(مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)**.

وناسب إيجاز آية النساء ما بنى عليها من قوله: **(إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)** إيجازا بإيجاز، وإطنابا بإطناب (٤٣).

تاسعاً: أصول الدين

كذلك اعتمد علماؤنا رحمهم الله تعالى في توجيه متشابه النظم على قواعد أصول الدين، وقد ظهر ذلك جلياً في الآيات التي لها صلة بالرد على الفرق المبتدعة، من خوارج، ومعتزلة وقدرية، وغيرها، حينما اتخذ هؤلاء المبتدعة من النصوص القرآنية ما يستشهدون به على صحة مبادئهم كما يدعون.

ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

١ـ ما وجه به الخطيب الإسكافي آيات المائدة الثلاث **(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)** **(فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)** **(فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)** الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٧.

حيث قال عن المراد في الآية الأولى: "المراد به اليهود الذين كانوا يبيعون حكم الله بما يشترونه من ثمن قليل يرتشونه، فيبدلون حكم الله باليسير الذي يأخذونه، فهم يكفرون بذلك.

---

(٤٣) ملاك التأويل: ٣٤٥/١، ٣٤٦.

فأما أن يكون الحكم بخلاف ما أنزل الله كفراً فهو مذهب الخوارج، يذهبون بـ (مَنْ) هنا إلي الشياع الذي يراد في المجازاة، وهذا مخصوص به اليهود الذين تقدم ذكرهم، وتبديلهم حكم الله ليكذبوا رسول الله (ρ)، وذلك كفر" (٤٤).

٢ـ في توجيه المتشابه في قوله تعالى في سورة الزخرف **(وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)** (الزخرف:٢٠)، وقوله تعالى **(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)** (الجاثية:٢٤).

ولماذا أعقب في الأولى قوله **(مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ)** بقوله **(إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)** وأعقب في

الثانية قوله **(ما لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ)** بقوله **(إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)**.

يقول ابن الزبير الغرناطي رحمه الله:

"إنهم لما قالوا **(لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم)** فتعلقوا في احتجاجهم بقول الحق، وهو أنه سبحانه لا يجري في ملكه إلا ما يريده ويشاؤه، ثم في اختصاصهم من أسمائه الرحمن عضدا لتعلقهم وتقوية لما أرادوا الاحتجاج به.

وكأنهم قالوا: إذا كان متصفاً بالرحمة، ولا استبداد لأحد من الخلق بشيء من أفعالهم، وإنما يجري ما يصدر عنهم بحسب مشيئته وإرادته، وقد جرى ما نحن عليه من عبادة أصنامنا وما اتخذناه من معبوداتنا، وليس لنا استبداد بما يصدر عنا، فهو مراد له وبمشيئته، وهو رحمة لأنه الرحمن.

فلو كانت الرحمة في تركنا معبوداتنا لشاء ذلك لنا، لأن الرحمن لا يكون إلا ما هو رحمة، وإنما الفعل له لا لنا، فلو شاء أن لا نعبدها ما عبدناها.

فلما تعلقوا بما يبدو منه أن لديهم علماً، أخبر تعالى نبيه (ρ) أنه لا علم عندهم، ولا قالوا ذلك عن معتقد تركن إليه قلوبهم، وإنما هو تخرص قولي لا علم وراءه، ومن وحي الشياطين، لأنهم أولياؤهم كما قال تعالى**(وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ)** (الأنعام:١٢١).

فكلامهم تخرص بالقول لا علم وراءه، إذ الكلام في القدر وأحكامه، وإن الإرادة تخالف الرضا، وإن الآمر قد يأمر بما لا يريده، وأنه سبحانه قد يريد إيقاع ما لا يرضاه، وبيان ما تبنى عليه التكاليف،

---

(٤٤) درة التنزيل: ٨٤.

وتتعلق به الأوامر والنواهي من القدرة الكسبية، التي بمعرفتها وثبوتها حصول السلامة من مذهب الجبر، وبإنكارها التورط في مذهب الاعتزال، أو قول أهل القدر. وكلا المذهبين ضلال ونزوح عن الحق.

وكل من المذهبين له تهجم سبقية إلى الأذهان يدفعها التوفيق إلى النظر الصحيح، وإلا كان التخرص المورط في الضلالات، وهنا بحار طامية من دقائق العلم والنظر، لا شيء عند هؤلاء الكفار منها **(بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ)** (يونس:٣٩)، **(إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)** (يونس: ٦٦) ، فقد وضح التناسب في هذا.

وأما الآية الثانية: فإنه تعالى لما حكي عنهم قولهم منكرين للبعث الأخروي **(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)** أي وما يهلكنا إلا تعاقب الأيام والليالي فلم ينسبوا الإحياء والأمانة لفاعل مختار، يميت ويحيي، وبنوا على ذلك إنكار العودة، أخبر تعالى عنهم أنهم لا متعلق لهم إلا مجرد ظن لا مستند له، فقال: **(وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)** فأخبر تعالى أن مرجعهم إلى الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا، وتناسب هذا واضح لا خفاء به" (٤٥).

عاشرا: أصول الفقه

كذلك من الوسائل المهمة التي ارتكز عليها العلماء في توجيه متشابه النظم علم أصول الفقه.

ومن الأمثلة على ذلك ما وجهوا به قوله تعالى في سورة البقرة **(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ)** (البقرة:١٩٣)، وقوله تعالى في سورة الأنفال **(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)** (الأنفال:٣٩).

حيث تساءلوا عن السر في توكيد آية الأنفال بقوله (كله) دون آية البقرة، وعن السبب في تذييل كل آية بغير تذييل الأخرى.

وللخطيب الإسكافي، وابن الزبير الغرناطي إجابتان عن ذلك اعتمد كل منهما على أصول الفقه فيها.

ولنختر كلام الغرناطي رحمه الله تعالى، حيث يقول:

---

(٤٥) ملاك التأويل: ١٠١٣/٢ – ١٠١٥.

"إن آية البقرة نزلت في مخصوصين، وهم الذين كانوا بمكة ممن نصب لعداوة رسول الله (ρ)، وتعرض بالظلم والتنكيل لمن آمن به (ρ)، وطردوهم كل مطرد، فأذن الله لرسوله في قتالهم، لظلمهم إياهم، **إلى أن يقول:**

فالآية هنا واردة في مخصوصين، والكلام مقيد، فلم يكن ليناسبه الإطلاق والتعميم الحاصل من التأكيد، بكل المحرزة للعموم، والمقتضية الإحاطة والاستغراق.

وأما آية الأنفال فقد قال قبلها **(قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ)** وهذا بمقتضى اللفظ في كل كافر، ومثل هذا وإن ورد على سبب خاص فإن وروده على ذلك السبب غير مانع من دعوى العموم فيه، وهذا متفق عليه في فن الأصول.

وقد استقر معلوماً في الشريعة أن كل كافر بأي كفر فإنه إذا أسلم فإن إسلامه يجب ما قبله ويمحوه.

فلما اقتضت الآية الاستغراق والعموم ناسب ذلك التأكيد المعمم، فقال تعالى **(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه)**(٤٦).

حادي عشر: التاريخ

كذلك كان التاريخ من الوسائل التي استعان بها العلماء رحمهم الله تعالى في توجيه متشابه النظم، **ومن أمثلة ذلك ما يلي:**

- ما وجهوا به متشابه النظم في قوله تعالى **(وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** (المائدة:٦)، وقوله **(كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)** (النحل:٨١).

يقول الغرناطي رحمه الله في بيان تذييل آية المائدة بقوله **(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** وآية النحل بقوله **(لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)**:

"إن آية المائدة خطاب للمؤمنين، بما يجب عليهم من الطهارة لصلاتهم، وتعليم لهم كيفية عملهم في ذلك، وإنعام عليهم برخصة التيمم، إذا عدموا الماء، وكل هذا مستوجب للشكر لله سبحانه فقيل في ختام هذه الآية **(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)**.

أما آية النحل فإن السورة كلها مكية إلا آيات من آخرها، وغالب حالها أنها خطاب لكفار قريش، ومن كان مثلهم....

ثم ذكر عدة آيات تدل على أن الخطاب في سورة النحل للكفار، **إلى أن قال:**

---

(٤٦) ملاك التأويل: ٢٦٢/١.

"وعلى هذا استمرت آية سورة النحل، وقد تخللها من تذكيرهم بإنعام الله عليهم كثير إلى قوله **(وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا)** وكل هذا تذكير بعجائبه، من إنعامه تعالى، لا يمكن نسبة شيء منها لغيره ثم أعقب ذلك بقوله **(كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُون)** أي تدخلون في دين الإسلام، الذي لا يقبل في الآخرة سواه، فهذا أوضح تناسب والسورة مكية.

أما آية المائدة فلم يقع قبلها خطاب لغير المؤمنين، ولا ما قصد به سواهم، ولم يخاطبوا باسم الإيمان إلا وإسلامهم حاصل، ثم علموا طهارتهم بعد بيان ما أحل لهم وحرم عليهم.
ثم أعقب تعليمهم برخصة التيمم عند تعذر الماء، فناسب ذلك رجاء إنعامه عليهم بهدايتهم للشكر، فقيل **(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** ولم يكن ليلائم في كل ختام الآيتين إلا الوارد فيه، ولا يناسب عكس الوارد بوجه، فورد كل على ما يجب ويناسب. (٤٧).

---

(٤٧) ملاك التأويل: ٣٧٢/١ – ٣٧٤.

(المراجع)

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط دار الندوة الجديدة.

٢- إرشاد العقل السليم لأبي السعود ط دار إحياء التراث العربي.

٣- إعجاز القرآن الكريم للباقلاني ط عالم الكتب.

٤- إعجاز القرآن الكريم لمصطفى صادق الرافعي ط دار الكتاب العربي ببيروت.

٥- البرهان في علوم القرآن للزركشي ط دار المعرفة.

٦- تاج العروس للزبيدي.

٧- التفسير البياني للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ.

٨- تفسير سورة مريم للدكتور/ محمد علي حجازي رسالة دكتوراه أصول الدين القاهرة.

٩- تهذيب اللغة للأزهري.

١٠- جمهرة اللغة لابن دريد.

١١- الحيوان للجاحظ ط مصطفى الحلبي.

١٢- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ط السعادة.

١٣- سنن أبي داود ط دار الفكر.

١٤- سنن الترمذي ط دار الكتب العلمية.

١٥- صحيح البخاري ط الحلبي.

١٦- صحيح مسلم ط دار إحياء الكتب العربية.

١٧- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ط دار الكتب العلمية ببيروت.

١٨- كشف الظنون لحاجي خليفة ط وكالة المعارف باستانبول.

١٩- لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف.

٢٠- مسند الإمام أحمد ط دار الفكر.

٢١- معاني القرآن للفراء ط الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٢٢- مقدمة لابن خلدون ط الأعلمي ببيروت.

٢٣- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ط مؤسسة الرسالة.

٢٤- ملاك التأويل للغرناطي ط دار الغريب الإسلامي ببيروت.

٢٥- الموطأ للإمام مالك ط دار الحديث.

٢٦- النبأ العظيم للدكتور/ محمد عبد الله دراز ط السعادة.

٢٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ط دار الكتب العلمية.

٢٨- النكت في إعجاز القرآن للرماني ط دار المعارف.